انطوان صياغ

ما بعد سفينة نوح !

يخبرنا التاريخ الباطني ان شرود الانسان عن درب القدر، بدأ حين كاد وعيه المادي ان يكتمل .. لقد تطلع البعض في ذلك الحين الى تلك المسافات الطويلة التي اجتازوها، فتملكهم الغرور بالانجازات الضخمة التي حققوها، وسكرت نفوسهم بتلك المقدرات الباطنية التي تفتحت فيها، فبدأ حينذاك عهد انحراف التعددية (الايجابية) التي كانت تصب في خدمة الهدف المشترك، وهو استكمال مسيرة التطور في الوعي، لتغدو تعددية غايات انانية ومصالح شخصية، واخذ عهد التعاون والتآخي والمحبة يتحوّل الى عهود طويلة ومريرة من التناحر ومن الصراع على النفوذ والسلطة.

لقد كان صراعاً شرساً استخدم فيه الانسان مقدراته الباطنية للسيطرة على اخيه الانسان. وكان ذلك الصراع الرهيب هو ما رمزت اليه الاساطير «بحروب علوية».

اما الانسان الذي لم ينحرف عن مسار الحق، وبعد ان استنفذ كل الوسائل لثني المنحرفين عن المضي في غيّهم وضلالهم، فغادر تلك الديار المشؤومة حيث استكمل مسيرة تطوره بالوعي في بقاع اخرى، كما رمزت اليه قصة سفينة نوح .. ولكن من بقي اباده الطوفان الاكبر، ليعود ويصحو مجدداً بعد حين طفلاً في الوعي، في حضن العصر الحجري، الذي ابتدأ منه التاريخ المكتوب بسرد قصة بشريتنا الحاضرة.

منذ تلك الازمان بدأت تتكون الحضارات البشرية الواحدة تلو الاخرى، وما ان كانت اي حضارة تصل الى ذروتها حتى كانت تتكفئ على ذاتها لتظهر حضارة اخرى على انقاضها، مستخلصة من سابقتها بعض المفاهيم لتبني عليها من جديد مقومات تدرجها نحو الاكتمال.

وكأن بشرية ما بعد الطوفان كانت تستعيد تدريجياً ما انكفئ واختزن في وعي الباطن من معارف وخبرات سابقة، حيث كانت تلك العملية تتم بما يشبه حلم اليقظة، الذي ما ان يصحو منه المرء حتى يبدأ بتحليل ما تراءى له فيه من صور ورموز محاولاً استنتاج المعاني الكامنة فيه، آخذاً بالتعبير عنها من خلال صياغتها في قوالب نظرية يسعى لتطبيقها عملياً.

من هنا، في تلك الحضارات الاولية بدأ نشوء الافكار الفلسفية المتعددة التي كانت إما ان تتناغم، او اذا ما تضاربت في بعض الاحيان فكانت لا تلبث ان تعود لتتكامل فيما بينها، بما يصب اخيراً في خدمة الهدف المشترك لصالح الخير العام.

لكن تلك التعددية الايجابية التي كادت توصل اي حضارة الى ذروتها، كانت تصطدم في اثناء بعض مراحل تطورها وبخاصة قبيل وصولها الى هذه الذروة بالتناقضات السلبية التي كانت المحرّض لما اختزن في وعي الباطن ايضا من سلبيات حفلت بها ازمنة ما قبل الطوفان، والتي ادت في نهاية المطاف اليه .

فمخزون وعي الباطن في بشرية الازمنة الراهنة هو عبارة عن تجمّع لكل ما جرى في تلك الازمنة الغابرة من تطور ايجابي ومن تقهقر سلبي.

فكانت ذكريات ذلك التقهقر ومسبباته تعود لتدفع بنفسها نحو وعي الظاهر، في محاولة من وعي الباطن الى تعزيل مخزونه منها واحلال مكانها الوعي الايجابي، بفعل تنبه المرء لكيفية التعامل مع تلك السلبيات، التي ما اندفعت الى الوعي الظاهر الا بقصد التحرر منها.

ولعل مقولة «التاريخ يعيد نفسه» تدل في ابعاد معانيها على أن كل خطأ قد يقع فيه الانسان في اي زمن كان، لا بد من ان يتعرض بشكل او بآخر لتجربة الوقوع فيه مجدداً في زمن لاحق، لتصويب ذلك الخطأ بعدم تكراره.

وذلك كي يعود الانسان مجدداً الى مسار الحق، مسار القدر، وبعد ان ينقّيه من شوائب المصير الاهوج، يعود ليجعل حركة المصير تستعيد من جديد دورها الايجابي في إغناء درب القدر، بالتناغم مع هدفه السامي.

فتجسد الانسان على الارض ما كان سوى مصير خيّر، إختار من خلاله ان يتفتح على انسانيته في عالم المادة، ليعود بها زهرة ندية نضرة الى موجد تلك الزهرة، التي زرعها فيه بزرة على الارض، بانتظار ان تتفتح على مكنوناتها، ويعبق اريجها ويرتفع شذاها اليه، الى خالق الزهرة !